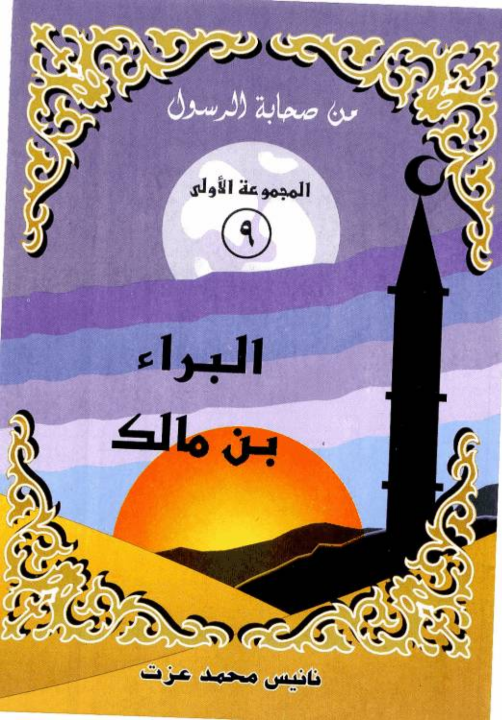

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
٩
البراء
بن مالك
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٩

البراء بن مالك

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

البراء بن مالك

عمَرُ وسَيْفٌ شقيقان شَقِيّان مُشَاغبان ، لا يَكُفّان عن الشِّجارِ فيما بينهما ، فهُما يَتشاجَرانِ لأتفهِ الأسْباب ، فيضرِبُ كلٌّ منهما الآخر ، ويعلو صَوْتاهُما بالصِّياحِ والصُّراخِ .

وكانت أُمُّهما تكرَهُ سُلوكَهما هذا ، وكثيرًا ما نبَّهتْهُما إلى أن يُحسِنَ كلٌّ مِنهما مُعامَلتَهُ لشَقيقِه ، ولكنْ بلا فائدة .

وذاتَ يومٍ قالَ عُمرُ لأُمِّه : سآخذُ الكُرةَ لألعبَ بِها مع أصْحابى يا أُمّى .

فهبَّ سَيفٌ واقِفا وقال : لا ، إنَّها كُرتى أنا ولنْ تأخذَها .

صرخَ عُمرُ : ولكنَّ أبى يَقولُ إنّها كُرتُنا نحنُ الاثْنَين .

وبدأ صَوتاهُما يَعلُوانِ بالصُّراخِ والشِّجار .

* * *

وفى هذه الأثْناء كان جَدُّهما الّذى جاءَ لزِيارَتِهم ، بالبابِ يدُقُّ الجَرَس .

قال : ما هذه الضَّوْضاء ؟ إنَّ صَوتَيْكُما عالِيان ، وأنا حَزينٌ جدًّا لِسُلوكِ كلٍّ مِنكُما تُجاهَ شَقيقِه ، فأنتُما أسوأُ مِثالٍ للأَشِقّاء .

وبعدَ أن دخلَ الجدُّ وجلس ، قال : سأَحْكى لكما يا وَلدَيَّ قِصَّةَ شَقيقٍ أحرقَ يَدَيْهِ كِلتَيهِما ، وهو يُنقِذُ شَقيقَهُ من الأَسرِ والمَوت .

قالَ عُمرُ مُستَغرِبا : أحدَثَ هذا حَقًّا ؟ ومن

هُو هذا الفِدائِيُّ الجَرِيءُ الّذى فعلَ ذلك ؟

قالَ جَدُّهُما : إنّــه الـبَراءُ بـنُ مـالِك ، وأخـوهُ أَنسُ بنُ مالِك .

قالَ سَيْف : دَرسْنا فى المدرَسةِ أحاديثَ نَبويَّــةً كَثيرة ، رَواها أَنسُ بنُ مالِك .

قال جَدُّه : عاشَ أَنسُ بنُ مالِكٍ تِسعًا وتِسـعِينَ سَنةً قَضاها كُلَّها فى العِلْمِ والعَمـلِ والجِهـادِ فـى سَبيلِ اللّه ، فكانَ من أشْهَرِ رُواةِ الحَديث ، كما كانَ مَوفورَ الرِّزق ، كَثيرَ المال ، كثيرَ الأَولاد .

ويرجعُ الفضلُ فى ذَلكَ إلى دُعاءِ الرَّسـولِ ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ ــ له ، حـينَ أحضَرتْـهُ أُمُّـه إليـهِ ليَعمـلَ عِنـدَه ، وكـانَ عُمـرُه آنـذاكَ عشـرَ سَنوات ، فقَبّلهُ الرَّسولُ ــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ

ـ بينَ عَينَيْه ، ودَعا له : (اللَّهُمَّ أكثِر مالَه وولَدَه ، وبارِك له ، وأدخِلْهُ الجَنَّة) .

قالَ سيْف : وكيفَ أنقذَهُ أخوهُ البَراءُ منَ الأسرِ والمَوْت ؟

قالَ جدُّه: كانَ البَراءُ ـ كما قالَ شَقيقُكَ عُمَر ـ فِدائيًّا جريئًا قَضى حياتَهُ كُلَّها يَعمَلُ جاهِدًا لنَيلِ شَرَفِ الشَّهادَة ، وهِيَ المَوتُ في سَبيلِ اللّه . فكانَ في مُقدِّمةِ المُجاهدينَ في سَبيلِ اللّه ، دائمًا ما يُلقي بنَفسِه في المَخاطِرِ طمعًا في الشَّهادَة ، واللِّحاقِ بمَنْ سَبقوهُ إلَيْها من الصَّحابةِ الأوائِل .

وكانَ البَراءُ شَديدَ الثِّقةِ بإكْرامِ اللّهِ له ، فعِندما مَرِض وزارَه بعْضُ إخْوانِه ، وكانوا خائفينَ عَليهِ من المَوْت ، قالَ لهم بإيمانٍ راسخٍ وثِقةٍ في فَضلِ اللّهِ

عليه : لا واللّهِ ، لا يَحرِمُنى رَبّى الشَّهادَة .

وأظهَرَ البَراءُ فى يَومِ اليَمامَةِ بُطولةً وفِداءً عَظيمَين ، فقد خرجَ معَ جُيوشِ المُسلِمين تحتَ إمْرةِ خالدِ بنِ الوَليدِ لِقتالِ مُسيْلِمَةَ الكَذّاب ، وجُموعِ المُرتَدّينَ عنِ الإسْلام . وحَمِىَ القِتالُ واشْتَدّ ، فمُسيلمَةُ وأعْوانُه قُوّةٌ لا يُستَهانُ بها ، فقد كانَ جَيشُهم أخطرَ جُيوشِ الرِّدَّةِ جَميعا .

قال عُمَر : ألِهذه الدَّرجةِ كانتْ أعدادُ المُرتدّينَ كَبيرةً يا جَدّى ؟

قالَ جدُّه : دخلَ فى الإسْلامِ بعدَ فَتحِ مكَّةَ كَثيرٌ من ضِعافِ النُّفوس ، أَسلَم بَعضهُم إمّا خَوفًا من قُوَّةِ المُسلِمينَ وكثرةِ عدَدِهم ، والبعضُ الآخرُ لم يَستقِرُّ الإسْلامُ فى قُلوبِهم بَعدُ ، فهم

حَديثو عَهدٍ بالإسْلام . فلمّا ماتَ الرَّسولُ ـــ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ ـ بدأ أصْحابُ النُّفوسِ الضَّعيفةِ فى الرِّدَّة ، أىّ تَركِ الإسْلامِ والعَودةِ إلى الوَثَنِيَّة وعِبادَةِ الأصْنام .

سأل عُمَر : وماذا كانَ موقِفُ الخُلَفاءِ الرّاشِدينَ منهم ؟

سَعِدَ الجَدُّ باهْتمامِ حَفيدَيْهِ بالقِصَّة ، وقال : حَرَصَ كلٌّ من أبى بكرٍ الصِّدِّيقِ وعُمرَ بنِ الخَطّابِ على القَضاءِ على تلكَ الفِئَةِ الضّالةِ غيرِ المُهتَدِيَة ، وهى فى مَهدِها .

قال سَيف : وكيفَ كانتْ مَعرَكةُ اليَمامةِ يا جَدّى ؟

قالَ جَدُّه : كانتْ مَعرَكةً عَنيفَةً جدًّا ، وكانتْ جُيوشُ مُسيْلِمةَ على أتَمِّ اسْتِعدادٍ لها ، حتّى

كادوا أن يأخُذوا بزِمــامِ الأُمـورِ ويَتقدَّمـوا علَـى المُسلِمين ، وتحـوَّلَ دِفـاعُهُم إلَـى هُجـوم . وراحَ كلُّ قائدٍ يُشجِّعُ جُنودَه علــى القِتـال ، وكانــتْ لِلـبَراءِ بـنِ مـالِكٍ كلِمــةٌ ســرَتْ فــى الجُيــوشِ الإسْلامِيَّةِ كالسِّحر ، فقدْ قال :

ـ يا أهلَ المَدينَة ، لا مدينةَ لكــم اليَـوم ، إنَّمـا هو اللّهُ والجَنَّة .

قالَ سَيْف : وماذا كانَ يَقصِد ؟

قال جدُّه : ذكَّرهُم البَراءُ أنَّهــم إنَّمـا يُقـاتِلون لنَيلِ الجَنَّة ، لا لنَيلِ الدُّنيا ، فإنْ تَخاذَلوا خَسِروا الاثْنَيْن معا ، خَسِروا المعرَكة ، وسـقطَتِ المَدينـةُ فى يَدِ مُسيلِمَة ، فإمّا النَّصرُ وإمّا الشَّــهادَة . أىْ المَوتُ فى سَبيلِ الله .

واسْـتجابَ الجَميـعُ لِنِـداءِ الـبَراءِ بـنِ مـالِك ،

وتحوَّلت جيوشُ المُسلمينَ إلى صاعِقَةٍ أصابَتْ مُسيلِمَةَ وجُنودَه ، وألجأتْهم لأن يَحتَموا بحَديقةٍ كَبيرَةٍ عاليَةِ الأسْوار أغْلَقُوها على أنْفُسِهم ، وحاصَرَها المُسلِمون .

فقالَ لَهمُ البَراءُ بنُ مالك ، الباحِثُ عنِ الشَّهادَة :

ـ احْمِلونى وألقونى عَليهم فى الحَديقة .

كانَ يُريدُ أن يَدخُلَ الحَديقَة ، ويفتحَ لهم أبوابَ الحِصن .

ولم يَنتظِر البَراءُ أن يَفعَلوا ، بل أسْرعَ واعْتَلى الجدارَ وألقى بنفسِه داخلَ الحَديقَة ، ثُمَّ فتحَ بابَ الحِصنِ لتَدخُلَ الجُيوشُ الإسلامِيَّةُ كالصّاعِقَة ، تُدَمِّرُ وتُهلِكُ أخطرَ جُيوشِ الرِّدَّة ، أى الرُّجوعِ عن الإسْلام .

قالَ عُمَر : وماذا حدثَ للبَراءِ بنِ مالِك ؟ أنالَ الشَّهادةَ كما كانَ يتمَنَّى ؟

قال جَدُّه : لا ، فلم يَحِنْ أَجلُهُ بَعد ، ولكن كان من نَصيبِهِ بضْعًا وثَمانينَ جُرحا ، ألزمَتْه الفِراشَ شَهرًا كامِلا . وقد تولّى عِلاجَهُ خالِدُ بنُ الوَليدِ نفسُه .

فتعجَّبَ عُمَرُ وقال: قائِدُ الجَيشِ هو الّذى يُعالِجُه!

قالَ جَدُّه : نعم ، فإنَّ فى ذلِك نوعًا من الشُّكرِ والعِرفانِ بفَضلِه ، فهو الّذى فتحَ بابَ النَّصْرِ للمُسلِمينَ .

وبعدَ أن شُفِيَ البَراء ، خرجَ يَبحَثُ عن غايَتِهِ الّتى يَسعَى لَها وهِيَ الشَّهادَة ، خَرجَ مع الجُيوشِ المُتَّجهَةِ لِحَربِ الفُرسِ والرّوم ، وكانَ بائِعًا نَفسَهُ علَى الدَّوامِ لِلّه ، طالِبًا الشَّهادَةَ لِنفسِهِ .

ففى إحْدَى الحُروبِ مع الفُرْس ، لَجأَ الفُرسُ إلَى حِيلَةٍ بَشِعَةٍ لقَتلِ المُسلِمينَ أو أَسْرِهم ، فقدْ اسْتَخدَموا كَلاليبَ (خَطاطيفَ) وَضعوها فى نِهايَةِ سَلاسِلَ مُحْماةٍ بالنّار ، وأَلْقَوا بها من حُصونِهم على المُسلِمين ، فمَن مَسَّه كُلاَّبٌ من تِلكَ الكَلاليب فلا فِرارَ له مِنْه ، فلا يَستَطيعُ أن يُخلِّصَ نَفسَهُ من شدَّةِ سُخونَةِ السِّلسِلَة .

وتَشاءُ الأَقْدار أن يَسقُط كُلاَّبٌ من تِلكَ الكَلاليبِ علَى أَنسِ بنِ مالِك ـ أخى البَراء ـ ورأَى البَراءُ أَخاهُ وهو يَصعَدُ إلى أعلَى الحِصْنِ عاجِزًا أن يُخلِّصَ نَفسَه ، فالسِّلسِلةُ تَتوهَّجُ لَهبًا ونارًا .

وأسرعَ البَراءُ وانْقضَّ على السِّلسِلَةِ بكِلتا يَديْه ، غَيرَ مُهتَمٍّ بما قد يصيبه ، وعمِل بكلِّ

ما وَسِعَه من قُوَّةٍ وعَزمٍ على تَخليصِ أَخيه .

قالَ سَيفٌ مَشْدُوها : أَينجَحُ في ذلِك ؟

قال جدُّه : نعم ، لقد نَجحَ البَراءُ في إنْقاذِ أَخيه .

وتساءلَ عُمَر : ويداه ماذا أصابَهُما ؟

قالَ جَدُّه : نظرَ البَراءُ ومن معَهُ إلى يَدَيْه ، فلم يَروا سِوى هَيكَلٍ عَظمِيٍّ مُحترق .

سألَ عُمَر : وأينَ ذَهبَ الجلدُ واللَّحم ؟

قالَ جَدُّه : احْترقا تَمامًا حتَّى تَلاشَيا من شِدَّةِ تَوهُّجِ السِّلسِلَة .

وقَضَى البَراءُ فَترةَ عِلاجٍ أُخرَى طَويلة ، حتى شُفِيتْ يَداه واسْتَطاع أن يُشارِكَ من جَديدٍ في الحُروبِ طلبًا للشَّهادَة ، والمَوتِ في سَبيلِ اللّه .

قالَ سَيْف : ألِهَذهِ الدَّرجةِ كان يُحبُّ أخــاه ؟ لقد عانَى آلامًا كثيرةً حتّى بَرِئتْ يَداه .

قـالَ جَـدُّه : نَعـم ، فقـدْ كانـا أخوَيْـن يَجمَـعُ بينَهُما الحُبُّ والإيمان ، ثمّ إنَّ هـذا هـو السُّـلوكُ الطَّبيعِيُّ المَفروضُ بينَ الإخــوَةِ بَعضِهـم وبَعـض ، فلمْ يُفكِّرِ البَراءُ فى شَىءٍ سِوَى فـى إنْقـاذِ أخيـهِ منَ الأَسْرِ أو المَوْت .

* * *

إلى أنْ حانَت اللَّحْظةُ الّتى طالما تَمنّاها البرَاء ، لَحْظَةُ الشَّهادةِ فى سَبيلِ اللّه ، فقدْ خرجَ الـبرَاءُ لِحَربِ الأَهْوازِ ــ إقْليـمٍ خـاضِعٍ للفُـرس ــ فـى مَعركَةٍ تُسمَّى « تَستُر » .

وبدأَتِ المَعركَةُ بالمُبارَزة ، فقَتَـلَ الـبَراء وَحـدَه

مِائَةَ مُبارزٍ منَ الفُرس .

وطلبَ بعضُ الصَّحابةِ منَ البَراءِ أن يَدعُوَ اللّهَ لهم بالنَّصر ، فقدْ قالَ الرَّسولُ - صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ - : (رُبَّ أشْعَثَ أَغبَرَ ذى طِمرَيْن ، أى ثوبين باليين ، لا يُؤبَهُ له ، لو أَقسمَ علَى اللّهِ لأبَرَّه ، مِنهم البَراءُ بنُ مالِك) .

فقالَ البَراءُ داعِيا : اللَّهمَّ امْنَحنا أكتافَهُم ، اللَّهم اهزِمهُم وانصُرْنا علَيهم ، وألحِقْنى اليَومَ بنَبيِّك) .

قالَ عُمر : ومَنحَهُ اللّهُ شرَفَ الشَّهادة ؟

قال جَدُّه : نَعم ، فقد اسْتجابَ اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالَى لدُعائِه ، وانْتصرَ المُسلِمونَ نَصرًا مُبينا ، وكانَتْ له الشَّهادَةُ الَّتى طالما تَمنَّاها وطَلَبَها .

* * *

قالَ عُمَر : أنتَ على حقٍّ يا جَدّى ، فسُلوكُنا أنا وسَيْف ، يَبعَثُ علَى الخَجل .

قالَ سَيْف : فِعلا يَبعَثُ على الخَجَل ، ونَحن مُتأَسِّفان ، ونَعِدُك يا جَدّى أن تكونَ عَلاقَتُنا أحَدِنا بالآخَرِ أحسنَ مِمّا كانت علَيه .

قالَ جَدُّهما : هذا جَميل ، فقد اسْتَفَدْتُما مِنَ القِصَّة ، وأرجو أن تَستَمِرَّا على حُسنِ الخُلُقِ وحُسنِ المُعاملَةِ فيما بَينَكُما .

قالَ سَيْف : هيَا يا عُمَر ، هيَا لنَلعبَ بالكُرَّةِ مَعًا فى الحَديقَة .